الصيف · وفي وسطه يمر الطريق العام المعبد · وعلى تلة مرتفعة فيه قليلا ، اقامت حكومة الانتداب مركزا للشرطة · وكنا ، من بيتنا ، نراقب حركة دورياتها ، ونأخذ الحيطة ، في الدقائق المعدودة ، قبل وصولها الى القرية ، حين تقصدها لامر ما · ومن سطح ذلك البيت ، شاهدت اول معركة في حياتي ، معركة ترشيحا ، مع الجيش البريطاني ، في اواخر ثورة ١٩٣٦ · ففي بيتنا اجتمع المسلحون من اهالي القرية ، عشية المعركة ، ووضعوا خطة كمينهم المشارك فيها · وفي سفح التلة ، التي يقوم عليها ، دارت المعركة · وخسرها الثوار ، وانتشروا في الجبال ، الى ان تم القاء القبض عليهم ، واودعوا السجن ، بمن فيهم أبي ·

كان البيت بجوار الجامع · والجامع هذا ، اسم بلا مسمى · لم يكن فوق سطح الارض منه شيء ،وانما بقايا مداميك ، ظلت قائمة فيمنحدر التل · كنا نسميه الجامع ، ونقضي اكثر ساعات فراغنا نلعب في فنائه ، دون ان يتبادر الى ذهننا السؤال عن اصل التسمية · ولم يكن في القرية مسلم واحد · وكبرت وتعلمت ان الجامع يعود الى العصر المملوكي · فالمماليك احتلوا القلعة الصليبية الكبيرة ، في بداية السبعينات من القرن الثالث عشر ، اي بعد حوالي خمسين عاما على بنائها · وذلك قبل عشرين عاما من سقوط عكا ، آخر معاقل الصليبيين في فلسطين · وتعلمت ايضا ، ان القلعة شيدت كحلقة في سلسلة حصون ، تحيط بعكا ، عاصمة الصليبيين بعد سقوط القدس · وكان لها سوران : داخلي يحيط بحصنها ، وهو الاضخم والاكثر منعة ، وخارجي، يحيط بالربض ويلف التل ، حيث تقوم القلعة · ولم يهدمها المماليك كما فعلوا بامثالها على طول الساحل · وانما جعلوها مركزا لاحد اعمالهم ، والعمل هو « القضاء » في لغتهم ، في ولاية صفد · وهذه بدورها قلعة صليبية ، جعلوها عاصمتهم بدلا من عكا ، ولها سبعة عشر عملا ، كما تروي المصادر · وكان المماليك يؤثرون القلاع الداخلية ، ويبتعدون عن الشاطىء ،لانهم لم يتقنوا فن القتال البحري ، ولم يبنوا اسطولا يفي بهذا الغرض ·

وتاريخ معليا لم يبتدىء بالقلعة الصليبية ، لم ينته بخراب الجامع المملوكي فيها · فعلماء الآثار يرجعون تاريخها الى بداية القرن الحادي عشر قبل الميلاد · ويذهبون الى انها هي مدينة علوت ، او معلوت ، المذكورة في التوراة · والآثار الباقية في المكان تشهد بعمرانه في ذلك الزمان · ويقال ان سليمان الملك وهبها الى حيرام ، ملك صور ، مقابل اخشاب الارز ، التي قدمها هذا لبناء الهيكل · وظل المكان معمورا خلال الفترات التاريخية اللاحقة · وتبرز فيها الاثار البيزنطية ، وحوالي منتصف القرن التاسع عشر ، عمر المكان لاجئون من لبنان ، نزحوا اليه من منطقة الشوف · كان هؤلاء من النصارى الذين لجأوا الى الجليل الغربي ، هربا من القتال الطائفي في موطنهم · فخلال تاريخه